

الحياة الرهبانية في أيامنا

مقابلة مع الأب هنري بولاد اليسوعي^٥
أجزاها نقولا جيرو اليسوعي^{٥٥}

نقولا جيرو: مَنْ هو الراهب؟ وما الفائدة أن يكون المرء راهباً؟
هنري بولاد: إنّ الراهب (أو الراهبة) هو شخص يسعى لأن يعيش
في العمق الدعوة التي دُعي إليها كل إنسان. ولا أعتقد بأنّ الراهب هو مَنْ
تلقى دعوة منفردة. وبهذا المعنى، ليس الراهب أحد سكان المريخ، أو
من فئة مستتلة، أو من الجنس الثالث كما يُقال، بل هو مَنْ حمل الوصية
الأولى على محمل الجدّ إلى أقصى حدّ. وهي: «أحب الرب إليك بكلّ
قلبك، وكلّ نفسك، وكلّ قوّتك، وكلّ ذهنك». فإنّ الراهب يتمسك
بحرف تلك الوصية، الموجبة إلى كلّ إنسان، ويلتزم بها حياته كلياً.
فجوهر التكرّس الرهبانيّ هو اختيار الله اختياراً تفضيلياً.
هذا هو محور الحياة الرهبانية في نظري. أمّا الباقي فليس إلاّ أموراً
ثانوية.

ن.ج.: فبإلّا أنّ ذلك الاختيار انتفضيليّ هو الذي يدفعه إلى إبراز
انذور الرهبانية؟

ه.ب.: طبعاً، ولكنّ انذور ليست سوى إحدى وسائل التعبير

٥ مدير عام مؤسّسة «كاريتاس» في مصر والشرق الأوسط والبلاد العربية. له مؤلّفات
فكرية وروحية، منها: الإنسان، ولادة الموت، منطق للتلوّث، إله المستحيل، أبعاد
الحب...

٥٥ راهب فرنسيّ يدوس في جامعة القنيس يومف - بيروت.. ماجستير في الحنوق،
مجاز في الفلسفة.

الممكنة عن ذلك الاختيار التفضيلي لله . فليست التذور حدفًا في حد ذاتها، بل هي مجرد وسيلة ينبغي أن نخفف من طابعها المطلق . والهدف الوحيد هو محبة الله فوق كل شيء . وهذا ما تقوم عليه هوية الراهب .

وكثيرًا ما يتساءل الناس في عصرنا عن مشكلة الهوية . فإن سُئِلتَ عما تقوم عليه هوية الراهب، أجبت: إن الراهب (أو الراهبة) هو مَنْ راهن بحياته كلها على الرب . هو مَنْ كان الله كل شيء له . ووصية الله الأولى، كما عبّر المسيح عنها في الإنجيل؛ تشبه أولى الوصايا العشر التي أعطاها الرب لموسى، وهي: «الله واحد، لا تعبد أحدًا سواه» . والعبادة هي أن تجعل من حقيقة ما محورًا لحياتك، وأن تدعها تشغل حيز قلبك كله . هي أن تقف حياتك لها . فإن الراهب هو الشخص الذي نذر حياته لله .

أما عن السؤال الثاني الذي طرحته في مطلع المقابلة: ما الفائدة أن يكون المرء راهبًا؟، فأجيب: إن ذلك لا يأتي بمنفعة، تمامًا كسائر الأمور الجوهرية في الوجود:
ما المنفعة من الحب؟
ما المنفعة من الجمال؟
ما المنفعة من شروق شمس رائع؟
ما المنفعة من قطعة موسيقية ساحرة؟
لا شيء .

والراهب، هو أيضًا، لا نفع له . لكن هذا لا يعني أنه لا يفعل شيئًا، وأنه شخص غير مفيد وكسول . كلاً، ففي وسع الراهب أن يفعل شيئًا وأن يكون مفيدًا، ولكن ما يقوم به الراهب ليس إلا جانبياً و ثانوياً . ليس عمله جوهر دعوته، ذلك بأن جوهر دعوته هو على مستوى آخر، هو مستوى الكيان، لا مستوى العمل .

وهناك نص في توضيح يختص بما أعنيه، وهو نص الإنجيل الذي ورد فيه ذكر مرثا ومريم . نرى مريم هناك عند قدمي يسوع، تتأمله،

وترتوي من كلامه وهي مسرورة بأن تكون معه. ما المتفعة منها؟ لا شيء... إلا أن تكون هناك. أمّا مرتا فهي تنفع لشيء، وتنفعل شيئاً. وها إن يسوع يلومها على ذلك... خطأ، على كل حال، لأنه، لو لم يُعَدّ الطعام، لانزعج... ومع ذلك، فإنّ في الأمر تعليماً أساسياً، لأنّ حضور مريم المجانيّ وإصفاها كإنا أهمّ من الطعام بنفسه.

إنّ كثيراً من الرهبان يقفون على مستوى «الفعل» و «العمل» ويطبّقون على حياتهم مقياس المردوديّة، في حين أنّ تلك الحياة يجب أن تكون على مستوى مختلف تماماً: وهو مستوى السجود والحضور المجانيّ أمام الربّ.

لا شك أنّ تلك المجانيّة في الحضور لا تنفي العمل والالتزام على مختلف أشكاله، ولكن إذا فُقدت، كان الباقي كلّهُ نحاساً يطنّ أو صنجا يرنّ» (اقور ١٣/١).

ن.ج.: يذكّرني هذا بما قلته في كتابك الإنسان وسرّ الزمن من أنّ الأمور الجوهرية هي تلك التي تكون أكثر مجانيّة وأقلّ نفعا. وبهذا المعنى، فإنّ الصلاة أيضاً لا تنفع لها.

هـ.ب.: تماماً! فإن فعل الراهب شيئاً فإنّما يفعله من باب الزيادة. ذلك بأنّ عمله ليس من جوهر دعوته. واليوم، يقسمون الرهبان إلى «رهبان عمل» و«رهبان مشاهدة». ولكنّي أعتقد بأنّ للمشاهدة الأوليّة والأفضليّة. إنّ جوهر الحياة الرهبانيّة هو المشاهدة، أمّا العمل فهو إضافة وزيادة وفيض... ويبقى أنّ جوهر كلّ شيء هو تلك العلاقة الشخصية مع الربّ.

ن.ج.: قلت قبل قليل إنّ النذور ليست سوى وسيلة. فلم يبرز مثل تلك النذور؟

هـ.ب.: إنّ النذور هي في الواقع «اختراع» أتت به الكنيسة الغربية. وهو اختراع متأخر في الزمن إلى حد ما. فمئة عدّة قرون، لم يبرز الرهبان نذوراً، بل كانوا يعيشون البُعد الذي ما زالت الكنيسة القبطيّة

تمارسه اليوم في مصر: وهو بُعد «الموت والقيامة». كان الراهب الشاب يتمدد على الأرض، ويغطى بكفن عريض، وكان إخوته يتلون عليه الصلوات الخاصة بالموتى، إشارة إلى موته التام عن العالم وعن حياته السابقة. وفي ختام تلك المراسم، كان الراهب الشاب ينهض إنساناً جديداً ويحمل اسماً جديداً فيبدأ حياة جديدة. فذلك الموت التام عن النفس هو الذي يعبر عن جوهر التكرس.

أما في الغرب، فقد تجسّد ذلك في النذور الرهبانية الثلاثة. لماذا كان عددها ثلاثة؟ كان من الممكن أن يصل إلى خمسة أو إلى عشرة أو حتى إلى ثلاثين... فإنّ الرقم ٣ هو رمزي أكثر من سواه. ولماذا لا يُبرَز، على سبيل المثال، نذر للتواضع؟ فإنّ التواضع في نظري قد يوازي الفقر أو الطاعة. ولماذا لا يُخصّص نذر للوداعة، وثانٍ للصبر وثالثٍ للمحبة، إلى ما هنالك... ليست النذور إذا سوى تعبير تاريخي وثقافي عن حقيقة أعمق هي: تكريس النفس وبذليها في عطاء الله، تام ومطلق وخاص، ونهائي. نهائي، لأنّ من يموت يموت نهائياً!... فلا عودة ممكنة إلى الوراء. وبالطبع، يمكننا أن نتوسّع في شرح كلٍّ من النذور لئلا نرى عمّا يعبر كل نذر على الأخص. الفقر، مثلاً، يمكن أن يكون على مستوى «الامتلاك» أو على مستوى «الكيان». فإنّ فقر «الامتلاك» ليس سوى وسيلة ومرحلة للبلوغ إلى فقر «الكيان»، وهو يقوم في الأساس على التجرّد من «الأنا». هذا ما تقوم عليه المغامرة الكبرى في الحياة الرهبانية. وتتلخّص نتيجته في عبارة التّديس بولس الشّيرة: «فما أنا أحياناً بعد ذلك، بل المسيح يحيا فيّ» (غل ٢ / ٢٠). نحن هنا أمام الفقر الجذريّ على مستوى الكيان الأعمق. أما الفقر الخارجي فهو نسبيّ إلى حدّ بعيد، وقد يختلف من رهبانية إلى رهبانية أو من عصر إلى عصر. ولكنّ الجوهرية يبقى ذلك التجرّد من النفس، أو، كما قال زُونِيل: «ذلك التخلي عن امتلاك النفس». وكل فقر آخر يكون مصطنعاً ووهيمياً.

أما الطاعة فقد شوّهها بعضهم في الماضي حتى إنهم أتوا بأمور

مستهجنة لا تقرها الفطنة. فماذا تعني الطاعة في الواقع؟ تشبه الطاعة الفقر في أنها تهدف، هي أيضًا، إلى التجرد التام من النفس على مستوى الحرّية. ونستعين هنا بمثل يسوع المسيح الذي أسلم نفسه إلى الآب حتى النهاية («لكن مشيتك...»)، ومريم العذراء التي قبلت بإيمان كلام الملاك («ليكن لي بحسب قولك»).

ولكنّ الواقع كان مغايرًا في بعض الأحيان، فتعرّضت الطاعة عبر التاريخ لكثير من الانحراف والتزوير. فكّم من شخصيّة سُحقت في الأديرة، وكم من حياة حُطمت، من عاطفة حُقيقت أو جُرحت باسم الطاعة المقدّسة، حتى إننا لا نستطيع إلا أن نهلّل لردة الفعل الحاليّة التي تهدف إلى إعادة نظر شاملة في الطريقة التي فهم بها ذلك النذر ومورس. ويمكنني أن أقول في الطاعة ما يُقال في الاعتراف. فقد يكون سرّ التوبة وسيلة تحرير باطني وروحي. وقد يكون أداة استعباد وحمل على الشعور بالذنب. وتفترض الطاعة الحقيقيّة وجود مقدار كافٍ من الاتزان، لا من جيّة من يطيع فقط، بل من جيّة من يأمر أيضًا.

وفي ما يختصّ بالعقّة، علينا أن نعرّف ونكرّر أنها لا تعاش أبدًا بسهولة، كما كانوا يعتقدون في الماضي. ذلك بأنّ الجنس والعاطفة والحبّ البشريّ تؤثّر في جذور الكائن نفسيًا. وليست العقّة مجرد مسألة تناسليّة... بل هي أن تقبل الامتناع عن إقامة علاقة خاصّة مع شريك مفضّل من الجنس الآخر يستقطب حياتك كلّها.

قد نستطيع أن نقول إنّ نذر العقّة هو «مخالف للطبيعة». ولا يمكن تبرير هذا الطابع المخالف للطبيعة إلا من وجهة نظر وجود حبّ أقوى إلى ما لا نهاية، حبّ لا يتخطى الحبّ الأوّل فقط، بل يتلمه ويستوعبه.

ن.ج.: نشهد حاليًا، في نهاية القرن العشرين، مجتمعًا يتسم بطابع أكثر علمانيّة بكثير من السابق. أفلا تعتقد بأنّ النذور الرهبانيّة - ربّما في الغرب أكثر منيا في الشرق - قد همّش الراهب، وتجعله إلى حدّ ما خارج العالم، أو قد تضعه جانبًا على أيّ حال؟

هـ.ب.: لا شك أنّ الراهب يطرح مشكلة، وهذا طبيعي، لأنّ الراهب ينقطع عن العالم. ويُعتَبَرُ بعد «الانقطاع» جزءًا من دعوته النبويّة. فإنّ الراهب نبِيٌّ، حتّى وإن صمت، حتّى وإن لم ينفِزَه بكلمة، لأنّ حياته نفسها نبويّة، تنادي، ولا بدّ لها من أن تنادي. والراهب هو تحدّد لقوانين الطبيعة. ومن الطبيعي ألاّ يفهم، وأن يشير علامات استفهام وأن يدعو إلى التخطّي.

كلّ شيء يشدنا بقوة إلى الأرض... ونحن في باطنا أَرْضِيّون وشهوانيّون وأنانيّون... والرهان على البعد الآخر القيرتي والروحي - «روحي» بمعنى الكلمة الإيجابي - عملية عميرة على الراهب نفسه، ويصعب فهمها على مَنْ يراه يعيشها. ويقدر ما يجب أن تتخطّى بعض الصيغ الرهبانية القديمة، ولا علاقة لها على الإطلاق بجوهر التكرّس، يجب التشديد على أنّ الراهب هو، تحديدًا، الشخص الذي ينقطع عن «العالم»...

ن.ج.: مع كونه تمامًا في العالم!

هـ.ب.: طبعًا... مع كونه تمامًا في العالم. لقد كان المسيح أكثر الناس وجودًا في العالم واختلاطًا بمن هم حوله، ولكته ظهر، في الوقت نفسه، آية معرّضة للرفض، علمًا أنّ ذلك أعلن منذ ولادته: «جعل آية معرّضة للرفض» (لو ٢/٣٤). والراهب الذي لا يكون آية معرّضة للرفض، ولا يكون مشكلة، حتّى في داخل جماعته أحيانًا، يوشك ألاّ يكون أميًّا على وجه تامّ للإنجيل. ينبغي له أن يُزعج، بطريقة من الطرق. ليس الراهب أمرًا بديهيًّا، وحياته أيضًا ليست أمرًا يديهيًّا... شرط أن يتمّ الأمور في الاتجاه الصحيح. فليس المقصود أن يكون الراهب مختلفًا عن الآخرين لمجرد أن يكون مختلفًا عن الآخرين. وليس المقصود هو لعبة أو نوع من العناد... بل المقصود هو أمر مختلف تمامًا.

الراهب هو «الآخر»... وهو في الوقت نفسه بشر تمامًا، ولكن

بمعنى الشيء الذي يفوق قدرة البشر. و«هذا الشيء» الذي يفوق قدرة البشر» هو التحدي الموجه إلى الإنسان العادي، لأننا سريعو الميل إلى حصر الإنسان في تحديد وفي عالم جاهز، وكأننا نستطيع أن نقول ما هو الإنسان وأن نحيط به من جوانبه كلها.

إن الراهب يحطم، ويخترق الحواجز، ويلغي كل تحديد للإنسان. قال بسكال: «الإنسان يتخطى الإنسان إلى ما لا نهاية». و«تخطي» الإنسان هذا هو الذي يميز الراهب. الراهب يتدرج في مرحلة أخرى من مراحل تطور الإنسان. وبإمكانني أن أقول إن الراهب هو الكائن المتبدل. وهو ينبئ بما سيكون إنسان القند وبعد غد. وبهذا المعنى، من الطبيعي ألا يفهم الراهب. فالحياة هي، بوجه من الوجوه، حجر عثرة. فعلى سبيل المثال، لا يفهم إخواننا المسلمون على الإطلاق لماذا لا يتزوج الراهب. ويطرحون علينا السؤال التالي: «هل الزواج شر؟... لا، ليس الزواج شرًا. - لماذا لا تتزوج إذا؟» لأنني أعلن، بإيرازي نذر العقّة، أنّ هناك نمطًا آخر من أنماط العلاقة بالمرأة (أو بالرجل)، وأعلن أنّ الصلة بالله لا تحتاج حتمًا إلى أن تمر بعلاقة خاصة مع أحد الأشخاص من الجنس الآخر. ولكن، هنا أيضًا، لا بدّ أن نأخذ بعين الاعتبار بعض التوضيحات، لأننا في آخر الأمر، كائنات بشرية، وعدم استخلام الوسائط هو ثمرة مسيرة طويلة.

فحين أتحدّث عن جذريّة الحياة الرهبانية، أوكد أنّ هناك، منذ البدء، اختيارًا مقصودًا على الله دون استخدام الوسائط. وفي الوقت نفسه، بما أنّ تلك الصلة بالله، التي من شأنها أن تكون «طاهرة»، قد تجرّدنا تجرّدًا تامًا من إنسانيتنا، وقد تقسّى قلوبنا وعاطفتنا، اعتدّ بأنه يجب العودة إلى استخدام الوسائط. غير أنّ ذلك لا يمكن أن يحصل دون التمرّص للأخطار، إلا بعد اجتياز مرحلة من الجذرية وعدم استخدام الوسائط. فلا بدّ للإنسان من أن يقفز قفزة أولى، وأن يضحّي بكل شيء، فيستطيع من ثمّ أن يعود، طاهرًا ومجرّدًا، إلى ما هو بشريّ. فإنّ

المرور بوساطة البعد البشري لا يأتي إلا في ختام مرحلة من الانقطاع تبدو لي في غاية الأهمية.

وبتعبير آخر. إن صلتني بما هو بشري هي صلة فصحية، أي أنني أقوم على أن أعيش التعلق بعد المرور بـ «موت» يمكن من الوصول إلى تعلق تام في تجرّد تام. ويبقى هذا الأمر مستحيلًا، إن لم نمرّ بمرحلة انقطاع وتجرّد فعليّ. عندئذ يمكننا العودة إلى ما هو بشري والانغماس فيه بوجه أعمق، بقدر ما نكون قد تعلّمنا كيف نتخطى كلّ أنانية. ليس ذلك سهلًا على الإطلاق ويجب الاحتراس من الأوهام وأنواع التساهل مع الضمير.

يذكرني هذا الأمر بأسطورة الكيف التي ذكرها أفلاطون. فإنّ الفيلسوف الذي يعود إلى الكيف، لا يعود إليه وهو في وضع يشبه الوضع الذي كان فيه في البداية... ذلك بأنّه رأى العالم، ورأى الشمس، إلخ، وهو يعود إلى الكيف مختلفًا، لأنّه تبدّل. والراهب الذي يعود إلى العالم، ويعيش معه علاقة وثيقة جدًا، إنّما يعيشها بوجه مختلف كلّ الاختلاف عن تلك التي كان يعيشها في البداية، قبل مرحلة الانقطاع. فإنّ مرحلة الانقطاع هي مرحلة أساسية منذ البداية، وتساعد على إقامة علاقة أعمق مع العالم، بقدر ما يكون الانقطاع أكثر شمولًا وجذرية. وإلّا، فقد تصبح العلاقة مع العالم ملتبسة. ولكن يبقى بعد كلّ ذلك أنّ عملية التطهير، أيّا كان الانقطاع الذي تمّ في البداية، تحتاج إلى معوذة دائمة. فنحن لا نبتدي أبدًا اعتداءً تامًا... هناك اعتداء جذريّ في البداية، ولكن لا بدّ من معاودته باستمرار ومن مواصلته «بوجه مختلف».

ن.ج.: وهذا «الانقطاع» بالذات هو الذي يمكن بالتالي أن يُضنى على جميع العلاقات البشرية كثافة وعمق مختلفان تمامًا. أليس ذلك؟

هـ.ب.: بلى. هذا صحيح...! يبقى أنه ما من خليفة يمكنني أن تُصبح «للمكرّس» موضوع حياته الخاصّ والشامل، وهذا ما يُفسّر عدم إقدامه على الزواج. فهو لا يتزوج لأنّه اختار الربّ. «الربُّ كأسّي وحصّة

ميراثي» (مز ١٦/٥)

ن.ج. : إن ذلك يعود بنا قليلاً إلى سؤال كنت أرغب أن أطرحه في ختام هذه النقطة الأولى: من خلال حديثك، نشعر فعلاً بأن الحياة الرهبانية قد تصبح وسيلة لنمو الشخصية. أرغب أن أعرف فعلاً كيف يمكن في آخر الأمر، حياة الإنسان أن تمتلئ وللشخصية أن تنمو داخل الحياة الرهبانية.

ه.ب. : يعجبني هذا السؤال الحافظ. ماذا يعني «الامتلاء»؟ .. إن كلمة «امتلاء» تفرض وعاءاً يُعبأ حتى للشقة... والحال أن قلب الإنسان وعاء بلا قعر وهوة بلا قعر... من غير المعقول أن نسمى «ملء» قلب الإنسان. وإذا صح أن الإنسان لا محدود فاللامحدود وحده يستطيع أن يملأه. فقي بداية التكرس الرهباني لنا قناعة وحسد عميق بأنه ما من شيء بشري يستطيع أن يملأ قلبي:

«لقد خلقتنا لك، يا رب،

وسيتى قلبنا في قلق

إني أن يتريح فيك» (القديس أوغسطينس).

وإذا كنت قد اخترت الحياة الرهبانية، فلا تني عشيت ذلك واختيرت. عدم اكتفاء عميق أمام كل ما هو بشري وأرضي. وعندئذ، فيمت إلى أي حد يملأ الله قلب الإنسان الذي يتعب نفسه له. ولكنه يملأه بأن لا يملأه...

ن.ج. : أي بأن يوسع فيه الحفرة... !

ه.ب. : تمامًا، بأن يوسع فيه الحفرة... بأن يترك الحيوة فاعرة... إنه لأمر شاق جداً، ومطَّير جداً، ولكنه، في الوقت نفسه، محرر جداً. لأن الراهب يعيش معلقاً الرجل في الهواء، فاشر الفم، ومفتوح القلب، ومفتوح الحياة، يعيش معلقاً في الفراغ، بين السماء والأرض. كالواقف على شفير الهاوية. وهذا ما قصدته حين قلت إن الحياة الرهبانية تملأ دون أن تملأ. فبأي معنى تملأ وبأي معنى لا

تملاً؟... إن مثال الراهب ونموذجه الأصليّ وقدوته هي، في نظري،
فرنسيس الأسيزيّ: كان فرنسيس لا يملك... أيّ شيء على الإطلاق،
فقد زهد في كلّ شيء وفي نفسه على السواء. وأعتقد بأنّ الشيد الشهير
الذي أنشده القديس يوحنا الصليب يصلح أيضاً لأن يوضع على لسان
فرنسيس الأسيزيّ:

«السّموات لي، والأرض لي،

والأمم لي، والأبرار لي،

والخاطثون لي، والملائكة لي...

كلّ شيء لي والله لي...»

وهنا أتذكّر أغنية قديمة، وفيها هذه العبارة التي آثرت في تأثيراً
خاصّاً: «لا أملك شيئاً، ومع ذلك أملك كلّ شيء». وفرنسيس الأسيزيّ
كان إنساناً يملك كلّ شيء لأنه لا يملك شيئاً. ومن لا يملك شيئاً، بوجه
من الوجوه، يملك كلّ شيء، لأنّ كلّ شيء يوهب له، ويوهب له مرّة
أخرى، ويعاد إليه، ويضاعف. هذه هي المائة الضعف الموعود بها، لا
بل نعمة أكثر من مائة ضعف. بهذا المعنى تملأنا الحياة الرهبانيّة، ونغمرنا
وفرّة عطاء الله... «لو كنت تعرفين عطاء الله!...» (يو ٤/١٠)

وأنا نفسي أختبر ذلك كلّ يوم... فأشعر بأنّ الربّ يملأني ويزيد
في ما أنا عليه، في ما أقوم به، في صلاتي، في علاقاتي، في عملي
ونشاطاتي. أشعر بشبه طنح، وفيض وتدفق. ولكنّ هذا لا يدوم إلّا بقدر
ما يكون في أساس كلّ ذلك عدم امتلاك وفقر جذريّ ورفض الرغبة في
تملُّك ذلك الغنى كلّهُ. فما إن تظير رغبة في التملُّك والسيطرة... حتّى
يضيع كلّ شيء وتتوقّف المعجزة. وما إن يصبح الله كائنًا نريد وضع يدنا
عليه، حتّى يتحوّل إلى صنم. والصنم هو إله بإمكاننا أن نحيط به،
ونحبّسه، ونملكه، ونحصره. وينطبق قولِي هذا أيضاً على الحبّ،
والحرّيّة، والسعادة، والحياة...

ما إن نضع يدنا على الحبّ، حتّى لا يعود الحبّ حبّاً،

وما إن نضع يدنا على الحرّية، حتّى لا تعود الحرّية حرّية،
وما إن نضع يدنا على السعادة، حتّى لا تعود السعادة سعادة،
وما إن نضع يدنا على الحياة، حتّى لا تعود الحياة حياة،
وما إن نضع يدنا على الآخر، حتّى لا يعود الآخر آخر...

فكلُّ حقيقة نريد أن نمتلكها، نخنفي وتزول... الراهب هو مَنْ
يرفض أن «يضع يده» وأن «يملك». . . . وهذا ما يعود بنا إلى موقف الفقر
الأساسي، وقد أشرتُ إليه سابقًا. وهذا الفقر هو الذي يمكن المكرّس
أن يكون ممثلًا باستمرار، شرط ألا يُغلق يديه أبدًا، وألا يطبق ذراعيه
أبدًا على ما يملكه. فإنّ المكرّس هو مَنْ يقبل أن يكون «قناة نعمة»،
و«قناة حياة»، و«قناة حبّ». . . . تجري الحياة عبرها وتسرّب...

ويجتاز الراهب شيء أكبر منه وشخص أكبر منه ولكن، لكي يصير
معبّرًا، عليه أن يفرغ نفسه كليًا وأن يصبح فقيرًا تمامًا. والسييل الوحيد
إلى أن يمتلئ الإنسان هو أن يصير «قناة». فإنّ الإنسان لا يمتلئ كما
يتملئ الوعاء. بل يمتلئ كمجرى النهر الذي يمرّ فيه، والذي ينبع من
مكان آخر ليصبّ في مكان آخر... ليس المكرّس سوى نقطة عبور.

أحيانًا، أسمع الناس يقولون إنّ الحياة الرهبانية لا تنمي الشخصية
لأنها مبنية على الزهد. فأريد هنا أن أوضح مفهوم تلك الكلمة. فإذا كان
الراهب يعيش الزهد وكأنّه حرمان، فمن الطبيعي ألا تنمو شخصيته.
والزهد الذي لم يُرده، ولم يختره بدون تحفّظ، ولم ينبئه في العمق، لا
يمكن أن يكون مصدر نمو لشخصيته.

وهناك طريقة معينة لعيش العمق قد تكبح وتكبّ وتشلّ وتفقّر.
وهنا عليّ أن أسألك: «هل إنّ نذوري وتكرّسي هي وسيلة تساعدني على
أن أعيش حبًا أقوى وأكبر وأعمق ممّا هو... في الزواج، أم إنّها توقف
نمو قدراتي العاطفية والعلائقية؟... هل أنقصني تكرّسي أم
زادني؟...» إن أنقصني وأضعف قدرتي على الحبّ، فمعنى ذلك
أنتي أخطأت الطريق وانحرفت. وليس عليّ إذا أن أوصل طريقي في

الحياة الرهبانية، بل في عكسها. ليس هناك إلا دعوة واحدة للإنسان: وهي أن يحب. وبين الحياة الرهبانية والحياة الزوجية تختلف الوسائل، ولكن الهدف يبقى هو هو: تنمية قدراتي على الحب إلى أقصى حد.

إن كنت أحتاج إلى وساطة المرأة (أو الرجل) لكي أحقق هذا الهدف، يجب عليّ أن أتزوج.

ولكن إن شعرت، على عكس ذلك، بأنّ العلاقة الخاصة بالمرأة (أو الرجل) وتأسيس بيت وعائلة سيحولان دون الوصول إلى ملء الحب، بدل أن يكونا وسيلة له، فعليّ أن أتخلّى عنهما. والدليل على صدقي سيكون قدرتي على أن أحب «ملي»، وعلى أن أحب من كلّ قلبي وعلى أن أكون سعيداً من جزاء هبة نفسي إلى أقصى حد. والنمو الذي ألقاه حينئذ لا يكون سوى صدى ونتيجة وردّ فعل، في شخصيتي كلّها، لذلك الحب الذي أعيشه في أعماق نفسي.

إنّ نمو الشخصية ليس هو لعبة نلعبها. فإمّا أن تكون شخصيتنا نامية في العمق وإمّا أن لا تكون. وحين تكون نامية، فسرعان ما يلاحظ ذلك، ويشع، ويتفجّر، دون أن يحتاج إلى أيّ برهان. فبقدر ما يشع الراهب الفرح والسلام والحب، ويقدر ما يشعر بارتياح نفسي وجسدي، ويقدر ما يكون سعيداً في حياته، يمكننا أن نؤكد تأكيداً قاطعاً أنّه وجد طريقه وأنّ تكرّمه بلغ هدفه، وهو أن يساعد على أن يكون نفسه إلى أقصى حد، وأن يحقق نفسه.

لقد ذكرت سابقاً أنّ تحقيق النفس هو فصحيّ، أي إنه يمرّ بالموت، الموت الجذريّ الذي هو في الوقت نفسه موت يتبناه الإنسان ويريده ويختاره. ولأنّه موت متبنيّ، فهو يفقد طابعه المخيف أو المؤذي. تعجّبي كلمة «متبنيّ» لأنّها تفترض اختباراً واعياً ومقصوداً تاماً، بعيداً من كلّ إكراه وضغط وتابو.

ن.ج.: إنّ الحياة الرهبانية، أخيراً، هي دعوة إلى الحب، والحب هو فقر كبير جداً!

١٦/١٥)، أراد أن يعبر، على ما أظن، عن حقيقة أساسية. فليست أنا من يختار المسيح، بل المسيح هو الذي يقبض عليّ. وعلى كل حال، سبق للقديس بولس أن قال مثل هذا القول: «فقد قبض عليّ يسوع المسيح» (فل ١٢/٣). لقد «أميكت»، و«قبض عليّ»... والله وضع يده عليّ فعلاً. طبعاً، كان بوسعي أن أرفض! وهنا يأتي دور الاختيار. يمكن الإنسان أن يرفض تلبية النداء، ولكنه بظلّ الشخص الذي لا يتخذ المبادرة: إنه مدعو... يمكنه أن يقول «نعم» وأن يقول «لا»... ولكن اختياره ليس سوى تلبية لنداء يرفقه. وكلمة «نداء» هي في متبى الأهمية. فليست الدعوة «اختياراً» أو «قراراً» نتخذه بعد تفكير في دوافعنا العميقة... بل هي «تلبية نداء». والنداء يصدر من جهة أعمق منّي، فليست أنا من يقوم بالمبادرة، لأنّ المبادرة تصدر عن الله الذي يدعو. حيثي، لي الخيار في أن أقول «نعم» أو «كلا». وليس المقصود خطورة أقدام عليها من تلقاء نفسي، بل «ردّي» على الخطوة الإلحائية. وهنا يحقّ لي أن أقول: «إنّ الدعوة هي نعمة»

ن.ج. : ولكن، كيف نتوصّل إلى اكتشاف صحة الدعوة؟ فإن قدم أحدهم إليك، مثلاً، وقال إنه يريد أن يصير راهباً، فكيف نعرف أنّ ما يشعر به صادر، في نهاية الأمر، عن أعمق جهة فيه؟ وكيف نعرف أنّ الله هو الذي اتخذ المبادرة فعلاً؟

ه.ب. : إنّ قديم الدعوة ونجدّها في الماضي وفي الطغولة قد يكونان عاملاً يثبت صحة الدعوة. وهناك عنصر آخر هو قدرة المرشح على عيش الزهد بالنفس. هل كان قادراً على عيش الزهد بنفسه تجاراً وعلى الخدمة في السنوات الماضية؟ لأنّ الدعوة قد تكون مجرد اندفاع عفوي، وإرادة عابرة، واندفاع تصوّفي مؤقت، ونار من قش... أمّا إن عرف الشاب أنّ يذل نفسه لخدمة سنوات وأن يتخلى في سبيل الآخرين، فقد يكون خطوته أساس متين وجدّي.

وهذا ما يشبه قليلاً ما أقوله لثلاثة تسألني عن أبي في شاب تحبه. يكون جوابي على النحو التالي: هل كان صديقك فائتاً للكشافة؟ هل زار

الفتراء؟ هل كان عضوًا في جمعية خيرية أو حركة رسولية؟ هل قصد
الترى الفقيرة ليشارك في معسكرات عمل؟... إن كان الرد إيجابيًا،
فيذا يعني أن لكلمة «حب» عنده معنى واضحًا للغاية. أما إن كان متبجحًا
أنانيًا يغالي في الإعلان عن حبه، فيداخلني الشك وأطرح علامات
استنهام كثيرة... فإن ماضي الإنسان ونمط حياته والطريقة التي عاش
بها حتى اليوم هي دلالات قيمة تساعد على تمييز الدعوة. وإلى جانب
مسألتى القدم وبذل النفس اللتين تحدت عنهما، هناك مسألة الطبع.
فإلى أي حد يمكن المرشح طبعه أن يعيش حياته الرهبانية دون مشاكل
تذكر؟ ولا أقصد بذلك أن يكون المرشح مجردًا من طباعه... بل على
عكس ذلك، إذ ليس الراهب (أو الراهبة) إنسانًا جبانًا أو ضعيف
الشخصية، ولكن المقصود هو أن نعرف إلى أي مدى يستطيع ذلك
الشاب (أو الشابة) أن يسيطر على نفسه ويوجه طاقاته وميوله.

وعلى سبيل المثال، يقول الطبيب والأديب الفرنسي ألكسي كارل
إته من الواضح أن القديسين الكبار كانوا أشخاصًا أقوياء الجنس. وبناء
على ذلك فإن غياب الميول الجنسية ليس على الإطلاق علامة دعوة إلى
التبخل. فإن الحياة الرهبانية تفترض، على العكس، وجود حياة عاطفية
وجنسية قوية، وفي الرقت نفسه، وجود قدرة على ضبطها، ثم اكتسابها
إلى حد بعيد. هذا لا يعني أن يكون الشاب (أو الشابة) قد بلغ القمة، بل
أن يُظهر علامات تكشف عن إرادته وقدرته على ضبط النفس.

وإلى جانب قدرة المرشح على ضبط حياته الجنسية والعاطفية،
هناك قدرته على تحطّي عناده وعزّة نفسه وكبرياته الموروثة، ورغبته
الحقيقية في اتباع المسيح الفقير والمتواضع والمطيع. وهناك أخيرًا نقطة
أساسية أيضًا: وهي بُعد الدعوة التصوّفي. فمن دون هذا البعد، ليس
هناك دعوة حقيقية، لأنّ الدعوة قد تتحوّل سريعًا إلى الشكلية: كالأمانة
حتى الوسواس للندور والقانون والنظام... ولكن ذلك كله ليس بشيء
ولا يعني شيئًا، إن لم يكن هناك «أمانة» للنفحة التي تحمل كل ذلك والتي

هي الأساس. إن الدعوة تفترض وجود حب في أساسها... حب متقد للمسيح الذي يحمل كل شيء ويجرفه في تياره. فإن غابت تلك النفحة التصوّفية، تلك العلاقة، الشخصية إلى أقصى حد مع الله، ومع المسيح، فلا تعود الحياة الرهبانية حياة رهبانية، بل تصبح رتبة وشكلية، ونزعة مهنية، ونشاطية، وإلى ما هنالك.

ن.ج.: ... فتفسد الحياة الرهبانية!

هـ.ب.: تمامًا، ولدينا، وبالأسف، أمثلة كثيرة على ذلك!...

ن.ج.: لذا، يبدو لي أنه، بقدر ما نظل تلك النفحة حاضرة، يمكن تجنّب النزعة المهنية. فإتّنا نرى رهباناً كثيرين يركضون شمالاً ويميّتاً. ويحملوننا على الشعور بأننا أمام أشخاص هم رجال أعمال أكثر منهم رهباناً.

هـ.ب.: ولهذا فلا بدّ للحياة الرهبانية من أن ترتوي يومياً من المواجهة مع الله والحوار مع المسيح، وهو ما ندعوه الصلاة.

ن.ج.: هذا ما يحملنا على طرح السؤال التالي: ما هو دور الصلاة في الحياة الرهبانية؟

هـ.ب.: إنه دور مركزي! لأنّ النفحة التصوّفية التي تحدّثت عنيا قبل قليل لا تكون حاضرة في انطلاقة الدعوة فقط، بل تحضنها في كل مسيرتها وفي شتى مراحلها. إنّ الراهب الذي لا يصلي، ليس براهب. وكما ذكرت سابقاً إنّ الحياة الرهبانية لا تكون على مستوى «الفعل» أو «العمل»، بل على مستوى «الكيان العميق»، وأنّ الراهب في الحقيقة لا نفع له، كذلك أقول الآن إنّ الصلاة، هي أيضاً، لا نفع لها. فنحن لا نصلي لكي نحصل على النعم أو ليتحسن أداؤنا الرسولي، بل لنعيش مع الله ذلك الاتصال المليء بالمحبة ولنؤكد أوليته المطلقة في حياتنا. والصلاة هي أن أضع حياتي الرهبانية كل يوم، وكل صباح، في اتجاهها الصحيح. وهذا ما دعوته: البعد التصوّفي في الحياة الرهبانية.

ن.ج.: وماذا يعني ذلك؟

هـ.ب.: يعني أنّ التصوّف حبّ لله مجنون وشغفّ به مغمور

بالمحبة. إنه شيء يمسكني بأحشائي ويأعقق كياني.

ن.ج.: بهذا المعنى، يمكننا أن نرفع صلاةً تدعى صوفيّة في المكتب، وفي المطار، وفي الطائرة!...

ه.ب.: طبعًا! فإذا ما تملكنا ذلك الحبّ، لا يعود يتركنا وتصبح الحياة كلّها مشرّبة منه ومغمورةً به. وبالتالي، فإنّ النشاطات واللقاءات والأسفار لا تحول على الإطلاق دون الاتصال الحميم بالله الذي نندوّقه طوال اليوم كحقيقة قريبة وحاضرة إلى ما لا نهاية. ومع ذلك، فإنّ الصلاة التي لا تتسم بطابع تجانيّ، أي تلك التي لا نخضّص فيها بعض الوقت لله وحده، يُحشى أن تنحرف. وإن فقدت حياة الرسول العملية الحنين الحقيقيّ إلى الحوار مع الله، يُحشى من الانحراف والانفلات. فعلى الراهب أن يعرف كيف يلزم نفسه بأوقات مخصّصة للصلاة المحض والمجانبة، لا يقوم فيها بأيّ عملٍ آخر. ومع ذلك، قد لا يجد الراهب الوقت في بعض الأيام ليحتفل بالذبيحة الإلهية أو ليقوم بالتأمل... فليس له أن يضطرب أبدًا بقدر ما يحفظ في داخله بالرغبة في إيجاد ذلك الوقت، و«بالحنين» إلى حديث خاصّ مع الله. وإن وجد الوقت في اليوم التالي وغاص في الصلاة ملتذًا بها، فهذا يعني أنّ غياب الصلاة في الليلة السابقة لم يكن تهرّبًا. وما دام النشاط لا يعني تهرّبًا من الحديث الخاصّ مع الله، فلا داعي إلى القلق. غير أنّ الراهب الذي يأتي بكلّ الأعذار المميّنة ليتجنّب ساعة الصلاة يجعل حياته الرهبانية تفقد معناها كلّها. ولكن، بقدر ما أشدّد على «الحديث الخاصّ» المجانيّ مع الله، أحذّر من صلاة لا تكون سوى جملة معترضة في أثناء اليوم. إنّ التصوّف الحقيقيّ هو التصوّف الذي يغوص في قلب الله فيرى ذلك الاختبار متشرًا طوال النهار بشكل شعور دائم بالحضور الإلهي.

ن.ج.: بهذا المعنى، تشبه الصلاة، إلى حدّ ما، ما يحرك النهار وسائر الأعمال، والأشخاص الذين نلتقيهم طوال اليوم يغذّون صلاتنا. وكأنّ هناك نوعًا من الحركة الدائمة...

ه.ب.: أجل، هناك معركة دائمة وجدليّة من الصلاة إلى الحياة

ومن الحياة إلى الصلاة، والواحدة تغذي الأخرى. فليس هناك انقطاع بينهما، بل إخصاب متبادل. على سبيل المثال، أشعر وأنا أتحدث إليك الآن بأنني في عزّ الصلاة. وهذا الحوار الذي تجريه لا يتقطع إطلاقاً عن تأملي الصباحي، بل «يتواصل» معه. فهناك تواصل حقيقي، فالتيار نفسه يدفع كل شيء. وهذا يفترض أن يتخلّى الإنسان عن ذاته. حين كان أحدهم يسأل القديس إغناطيوس، مؤسس الرهبانية اليسوعية، ليعرف هل إنّ الراهب الفلاني هو رجل صلاة، كان يجيب: «لا تسألوني هل هو رجل صلاة، بل هل هو رجل إمانة». علينا طبعاً أن نفهم كلمة «إمانة» في إطار القرن السادس عشر. ولكن ما عناه إغناطيوس هو: «هل إنّه رجل متجرد من ذاته وفقير داخلياً؟» في الحقيقة: لا تقوم المشكلة على أن تعرف هل إنّ الراهب يصلي أم لا يصلي، بل هل إنّه متجرد تماماً من ذاته، وفقير تماماً على مستوى كيانه العميق. فإذا كان كذلك، فهو حتماً رجل صلاة. ليست الصلاة سوى ظهور التجرد التام عن الذات وتعبير عنه، وهذا ما يجعل الله يمتلك الكيان بكامله، ويتجلى ذلك التملك بالتأهب، والبسمة، والفرح، والسلام، والدينامية، إلخ. وباختصار، بكلّ العلامات التي يتهبده نسيب بولس ثماراً للروح (غل ٥/٢٢). إنّ ذلك التجرد التام وفقر الكيان انجذرتي هما اللذان أعودهما، في الحقيقة، «التكرّس».

ن.ج. - ألا تقصد في الواقع ذلك الموقف الذي لا بدّ للمخلوق أن يتخذه أمام خالقه، أي أن يعي الإنسان أنه مجرد خليفة، لا غاية، في حدّ ذاته؟

هـ.ب. : بلى. بشدّة ما يتشأن الإنسان كلياً ليكون «انفتاحاً محضاً» و«عظة محضاً»، يمكنه أن يعيش تلك الحقيقة.

ولا يجوز أن نحصر ذلك الاختبار في «المكرّس» أو في «الراهب» وحده، لأنّ عدداً كبيراً من صغار العاملين ومن ربّات البيوت يعيشون بذل الذات بوجه أقوى وأشمل في بعض الأحيان من رهبان كثيرين... ولكي أكون صريحاً، أقول إنني أقتدي أقلّ بكثير بالرهبان الذين يعيشون

حولِي ممَّا أتقدي بهذا العامل أو ذلك الذي يكتس الممرّات منذ سنين طويلة، أو بهذه الأمّ أو تلك التي تمضي ليالي كاملة في السهر على ابنها أو على زوجها المريض، ويرافق هذا كلّهُ بسمّةٍ وصبرٍ نادرًا ما نجدهما عند عدد كبير من الرهبان. في الحقيقة، ليس هناك طريقتان للوصول إلى الله، بل طريق واحد: هو (طريق) بذل الذات ونسيان الذات. والزواج الذي يعاش بمتطلباته كلّها قد يكون أحيانًا مدرسة أكثر تطهيرًا من الحياة الرهبانية. فلا يجوز أن نتوهم كثيرًا وأن نتصوّر أننا أفضل من الآخرين. علينا بالأحرى أن نقوم بفعل تواضع لنذكر أنّ معظم العلمانيين يعيشون التجرّد أكثر ممَّا نعيشه وهو تجرّد عميق جدًّا.

ن.ج.: وهل تعتقد بالفعل أنّ الراهب يعيش عمليًا دعوته على خطى المسيح في التجرّد وفي القدرة على بذل الذات؟ وفي نهاية الأمر، ألا يعني تكرّسه تلك القدرة على التجرّد؟

هـ.ب.: تمامًا! ولكن قد نميل دائمًا إلى التشديد على أمور أخرى تختلف عن هذا الأمر الأساسي. كالتشديد على الصلاة أو على العمل الرسولي، أو على المظنير، والعلامات الخارجية، وسرعان ما نتع في الفرسيّة. إنّ الفرسيّة هي أكبر تجربة للراهب. وهي تهّدنا جميعًا... وهناك تجربة دائمة، وهي أن نحمل أنفسنا على حمل الجذ، وأن نعتقد بأننا أفضل من الآخرين... «اللهم، شكرًا لك لأنّي لست كسائر الناس...» (لر ٨/١١)

قلْتُ في مطلع الحديث إنّ الراهب (أو الراهبة) هو إنسان «مفرد»، فيجب أن نفهم هذا الثور بمعنى حبّ أقوى ممَّا نستطيع أن نتصوّر. ليس الراهب منتظمًا لأنّه يعيش على حدة أو لأنّه يعتقد نفسه مميزًا أو أفضل من سائر الناس. فلا بدّ لنا من أن نتعمّق في عدسنا وفقرنا وتواضعنا، لكي ننجو من تجربة الفرسيّة... وذكرتُ قبل قليل أنّي أتقدي بأناس عاديين جدًّا ألتقيهم كلّ يوم. تقول لي إحدى السيدات: «لم أنم منذ ثلاث ليالٍ لأنّ ابني مريض». وبعد ليالي الأرق، تتوالى النشاطات اليومية بلا رحمة من الصباح حتّى المساء: من تنظيف البيت،

والتسوق، والطهي، وغسل الأواني، وغسل الثياب، والكوي، وفروض
الأولاد وحمّاماتهم، ومتطلبات الزوج ومزاجه السيء، إلخ. وأمام هذا
المشهد، يأخذني الإعجاب وأناحنى إكبارًا! وأعترف بتواضع أنني عاجز
كلّيًا أن أعيش مثل تلك الحياة، وأشعر بأنني في متهى الصغر أمام مثل
تلك البطولة. وأعتبر أنني ما زلت في مرحلة بدائيّة. فحتّى لو كنت
أخصّص وقتي كلّهُ للآخرين، فأنا لم أقم إلاّ بواجبي. وحين يقول لي
أحدّم: «إنك تعمل كثيرًا يا أبت...»، أجيب: «ولكنّ هذا أقلّ ما
يمكنني أن أقوم به!». قبل أسبوع، لُقنتُ درسًا في التواضع. فقد حضر
أحد الأشخاص إلى مكبي ليزورني. (وفي أثناء الزيارة، تواتت
الاتصالات الهاتفية، والإمضاءات، والرسائل، واللقاءات،
والاجتماعات... فكانت دواقة حقيقيّة. ظننتُ أنني أدهشته. فقلت
له: «إنّ النمط الذي أتبعه في المكتب هنا هو غير معقول...» فأجابني:
«ولكن، يا أبت، ليس هذا بشيء! فما عليك إلاّ أن تزورني في البيت
لترى كيف أعمل!... إنّه لأمر مختلف تمامًا!...». وعلى الفور،
ردّتي تلك العبارة القصيرة إلى تواضعي. فقد تعرّضت لتجربة أن أحمل
تنسي على محمل الجدّ وأعتبر أنني بطل. وأدركت فجأة أنّ هناك آخرين
يتبعون ذلك النمط الصاحب، ولكن بوسائل أقلّ بكثير ممّا لديّ،
وبصحة متلفة بعد عدّة ليالٍ ساهدة، وبدون جميع الرسائل وجيش
المعاونين الذين يحيطون بي.

علينا، نحن الرهبان، أن نعوّص في تواضعنا، وأن نقول، ونردّد:
نحن عبيد بطالون، لأننا لا نقوم إلاّ بواجبنا. وعلينا أيضًا أن نترك عالمنا
الصغير، ونخرج من أنفسنا، وننظر حولنا لنكتشف أولئك الناس الذين
يعيشون أوضاعًا أصعب بكثير من أوضاعنا.

نحن تعرّض دائمًا لتجربة أن نعتبر أنفسنا أشخاصًا في غابة
الأهميّة، وأنا أولهم، ولهذا أقول إنّ إحدى علامات الحياة الرهبانية هي
الفكاهة. أجل، إنّ الفكاهة هي علامة حياة روحية سليمة. وأول فكاهة

علينا أن نكسبها هي الفكاهة مع الذات .

ن.ج. : أصِلْ إلى الوجه الأخير، وهو معنى الحياة الرهبانية . فهل تعتقد بأن الحياة الرهبانية ما زالت تحتفظ بمعناها، في نهاية القرن الحالي، وهل ترى أنّ لها مستقبلاً؟ فنحن نسمع هنا وهناك أناساً يقولون إنّ استمرار الحياة الرهبانية ليس مضموناً في عالم يطالب بأنواع أخرى من الخدمات... فكيف ترى مستقبل الحياة الرهبانية وما هو معناها الحقيقي؟

ه.ب. : أعتقد بأن معنى الحياة الرهبانية هو أن تكون نبوية . والحياة الرهبانية التي لا تبقى نبوية تفقد «كل» معنى! إن بدا اليوم أنّ الحياة الرهبانية أفرغت من معناها، فلأنها لم تعد نبوية، وإن لم تعد نبوية، أمكنها أن تموت موتاً نهائياً. إنّ زوال رهبانية أفرغت من جوهرها النبوي لا يقلقني على الإطلاق. ولكنني أقلق حتماً، إن لم تعد الكنيسة نبوية بمجملها، لأنّ جوهر الكنيسة نفسه يكمن في أن تكون نبوية، أي في أن تكون منقطعة عن العالم، أي عن روح العالم.

بقدر ما تصبح الرهبانيات مؤسسات، بأسوأ معاني هذه الكلمة، تموت، وأنا أسعد لذلك... فإن الحياة الرهبانية التي لم تعد سوى بناء أو عمارة من القوانين والأنظمة والنشاطات، ليست بحياة رهبانية. أحياناً ما نرى الحياة الرهبانية، في أيامنا، على مستوى «الإنجازات»: من مدارس، ومستشفيات، ومآوٍ، ومؤسسات اجتماعية... هذا كله حسن جداً، ولكن، هل أنّ تلك المؤسسات تنادي الناس فعلاً؟ هل هي علامات ونداءات؟ ونحن الذين ينشطون تلك المؤسسات، أو يقترضون فيهم ذلك، هل إنّنا علامة استفهام مطروحة على الناس؟... هل إنّ قوة الإنجيل المحرّضة ما زالت تدعو الناس اليوم من خلالنا؟ إن لم تكن الحال كذلك، فإنّه يُخشى كثيراً أن يزول هذا النمط من الحياة الرهبانية، لأنّ الشبان (أو الشابات) الذين يفكرون بالتركّس لا يريدون أن يُدعوا إلى تأمين الاستمرار لمؤسسات لم تعد تعني شيئاً. وعلى العكس، يمكن أن يشعر هؤلاء الشبان أنفسهم بأنهم مدعوون، بقدر ما تشهد الحياة الرهبانية على قوة الإنجيل المحرّضة من خلال الرجال والنساء الذين يعيشونها. إنّ

الشاب (أو الشابة) لا يختار هذه الرهبانية أو تلك بطريقة مبسطة. بل انطلاقاً من الراهب (أو الراهبة) الفلاني الذي يشع نور المسيح وسحبته ويجسد الإنجيل. حيثُذ، يقول الشاب: «أريد أن أكون مثله...». والرسول لم يتبعوا يسوع انطلاقاً من برنامج حياة، ولكنهم تبعوا يسوع انطلاقاً من يسوع. فقد رأوا أنّ ذلك الرجل يجسد في شخصه مثلاً معيناً للمحبة والحرية، حتى إنهم أرادوا أن يتبعوه ويتلمذوا له. وفي آياتنا. يحصل الأمر نفسه تماماً. فيقدر ما نجسد، أنت وأنا، مثال المحبة والحرية، نوّلد عند الآخرين رغبة في اتباعنا.

فحين أسمع من يتحدثون عن «رعاية الدعوات»، أضحك في سرّي، فعلام تقوم «رعاية الدعوات»؟ على القيام بالدعاية؟ على طبع مليون منشور عن هذه الرهبانية أو تلك؟ على أن نعرّف بمؤسسات ونشاطات من خلال الصور، وأفلام الفيديو، والمعارض، والمحاضرات...؟ يبقى ذلك كلّ بلا نتيجة إن لم نكن نحترق باطنياً، وإن لم نشع المسيح فعلاً.

وما يجذب الشاب (أو الشابة) هو أن يرى «النوعية» البشرية والروحية عند أولئك الذين يؤلفون جمعية رهبانية، وأن يكتشف أنّ أولئك الرجال أو النساء يعيشون «بطولة» حقيقية. هي المرة الأولى التي استعمل فيها هذه الكلمة، ولكنها كانت حاضرة ومسترة في حديثنا كلّه. حين سألتني ما هي الحياة الرهبانية، كان بوسعي أن أجيب: إنّها البطولة الصّرف، إنّها «التخطي»... إنّها الإنسان المتفوق... فيكون للحياة الرهبانية مستقبل إن كنا أناساً من هذه الجبله. ولا بدّ لنا أولاً أن نعيش ماء حياتنا، دون أن نهتم كثيراً برعاية الدعوات. وإذا شعر الشبان بأنهم مدعوون، لا بأس، فلأنّ لحياتنا معنى ولأنيما تلبي حاجة. وإن لم يشعروا بذلك، فلأننا لم نصيب الهدف.

و«سزاد» دعوات... إن كنا أولاً ما يجب أن نكون. فلا يجوز أن نسعى لتغذية الآلة الرهبانية وتلقيمها بالمحروقات والوقود... وبالرجال

والنساء... «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبيّره تُزادوا هذا كله» (متى ٦/٣٣). لنعيش دعوتنا الرهبانية بملئنا وستُراد دعوات.

لو كان يعود إليّ أن أحرّك الدعوات، لأخذتُ الشباب إلى الصحراء وجعلتهم يكتبون تحت أشعة الشمس الحارقة، ولحملتهم على السير مئات الكيلومترات، والغطس تحت الماء، ولوضعهم في النار وفي الزيت وفي الجليد... ولأقحمهم في أعظم المغامرات، الإنسانية والروحية على السواء، فإن خرجوا منها سالمين، كانوا صالحين ولا شك لأن يكونوا مدعوين حقيقيين.

إنّ ما يعوزنا في بعض الأحيان هو أن نعرف كيف نعرض على الشباب مثلاً مستحيلاً. وما دننا نعرض عليهم أموراً «ممكنة»، سيظلون مشمئزئين، لأنهم محاطون بكثير من الأمور «الممكنة» والسهلة. كلاً، يجب أن نعرض عليهم «المستحيل»، وأمام هذا المستحيل قد يتولّد شيء في نفوسهم.

«ليس الطريق مستحيلاً،

بل المستحيل هو الطريق».

والحياة الرهبانية هي بالضبط ذلك الطريق المستحيل، ولأنه مستحيل، سوف يمكنه أن يجذب ويستيري.

ففي ما يختص برعاية الدعوات... أفضل أن أستصحب الشباب إلى الصحراء لمدة ثمانية أيام وأن أدفعهم إلى السير في الوديان عند الظهيرة تحت أشعة الشمس... وفي ختام الأيام الثمانية، يكون الشباب قد «تعلموا بالروح القدس والنار». وأعتقد أنّ هذا العماد هو الوحيد الذي يستحقّ العناء، أمّا الباقي فيهر من قبيل الفولكلور. ذلك بأنّ المتصرد هو مساعدة الإنسان على «النفاذ» إلى «ما يفوق البشر». والإنجيل في نظري هو الإنسان الذي يتخطى الإنسان، ويجتاز الإنسان، ويصل بالتالي إلى ما هو إلهي. وأظنّ أنّ الحياة الرهبانية هي بالضبط تلك الدعوة النبوية التي نجدتها في الكنيسة.

ن.ج.: إذا، يرتبط مستقبل الحياة الرهبانية إلى حد ما بوجود «أنبياء». فبقدر ما يكون هناك أنبياء، يكون للحياة الرهبانية مستقبل. ولكن، هل تعتقد فعلاً بأن الرجوع إلى مثالٍ أمرٍ حاتمٍ في نظر الشبان والشابات؟

ه.ب.: أجل. إن المسيح هو مثال، وأكثر من ذلك، إنه «المثال» المثالي. ولكن ذلك المثال قد يكون أبعد بكثير من أن يُتَمِّم ويستهيوي. حين قال القديس بولس لأهل فيلبّي: «إقتدوا بي كلُّكم معاً» (قل ٣/١٧)، ولأهل قورنثوس: «إقتدوا بي كما أقتدي أنا بالمسيح» (١ قور ١١/١)، لم يقل ذلك تكبيراً وغروراً، بل لأنه كان يشعر بأن أولئك الناس محتاجون إلى مثال حيٍّ أمامهم يعكس على طريقته المثال النموذجي الذي هو المسيح.

المسيح اليوم هو أنت وأنا.

علينا أن نكون مسيحيًا لأهل عصرنا ومحيطنا.

وعلينا أن نجسّد اليوم ما كان المسيح عليه في الماضي. وهذا ما ندعوه «الافتداء بالمسيح». أي أن أكون مسيحيًا اليوم في مصر، في سورية، في لبنان، وفي أيّ مكانٍ آخر. مع الناس الذين ألتقيهم أو أعيش معهم. حيثنّذ، تكون حياتي نداءً!

ن.ج.: قيل مؤخرًا إن الحياة الرهبانية هي، في نهاية الأمر، المغامرة الأخيرة التي يمكن الإنسان أن يجربها. فما رأيك في ذلك؟

ه.ب.: إنه قول مثيّر للاهتمام!... المغامرة الأخيرة لأنها آخر مغامرة، مغامرة لا مغامرة بعدها. إنها في الواقع المغامرة الصحيحة الوحيدة.

لسوء الحظّ، تبدو عبارة «الحياة الرهبانية» عبارة مفتحة، لأننا توحى بإطار ديريّ قديم لا يتماشى مع العصر ومثقل بقرون من المظاهر الشكلية. وتذكّر الناس بماضٍ سحيق قد يثير عندهم انزعاجًا أو ردّة فعل دفاعية. لذا، أريد أن أبدّل السؤال قليلًا لأتحدّث عن البعد التصوّفي أكثر

مما أتحدّث عن الحياة الرهبانية .

قال الكاتب والسياسي الفرنسي أندره مالرو: «إما أن يكون القرن الواحد والعشرون دينيًا وإما أن لا يكون».

أجل، أعتقد بأنّ المستقبل هو للتصوّف. فما إن تُستفدّ وتُستعرض كلُّ النظريّات العلميّة، والفلسفيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة... حتى يكشف الناس. أنّ... المغامرة الحقيقيّة الوحيدة هي الإنسان نفسه... عمق الإنسان، الإنسان الماضي إلى عمق نفسه. إنّ كنزنا الحقيقيّ الوحيد هو، في نهاية الأمر، كنزنا الباطنيّ، الكنز الذي نغترفه في ذواتنا، في قدرتنا اللامتناهية على التخطي والبطولة. إنّ مغامرة المستقبل هي مغامرة الإنسان، المغامرة الإنسانيّة. ومستقبل الأرض يتقرّر في عمق نفوسنا. والحياة الرهبانيّة تمثّل في ما هو أكثر أصالة لدينا، طليعةً بشريّة المستقبل. لذا، ينبغي للحياة الرهبانيّة أن تتخذ وجهًا جديدًا لتكشف الأمور الجوهرية مرّة أخرى. ولهذا السبب، أعتقد بأنّ الحياة الرهبانيّة في المستقبل قد تكون مختلفةً إلى حدّ ما عما كانت عليه حتى عصرنا الحاضر. ولا بدّ لها دائمًا أن تعود إلى جذورها وأن تتجدّد وتُنعش ووجهها، من دون أن تقع في فخّ الزمّي. فما أشدّ امتعاضي من منظر أولئك الرهبان الذين يريدون بأيّ ثمن أن يبدوا «عصريّين»، فيركبون درّاجات نارية ضخمة ويرسلون شعرهم ويرتدون الدجينزات... على الحياة الرهبانيّة أن تعرف كيف تصير «جذابة» بعيدًا عن كلّ الفولكلور الخارجيّ.

ويعرف الناس من حولنا أن يميّزوا تمييزًا صحيحًا بين الصواب والخطأ، بين الحياة الرهبانيّة الصحيحة وكلّ تزييف لها. فيجب ألاّ نترقّم. لأنّ الناس ليسوا أغبياء، بل هم يرون بوضوح ما يختبئ خلف وجوهنا وأفتنتنا و«حصوننا»، وطرق عيشنا. لا يمكننا أن نمثّل مسرحيّة القداسة. ولا يمكننا أن نمثّل دور البطل أو «النبّي»... فإما أن نكون كذلك وإما أن لا نكون. إن كنا أبطالًا وأنبياء صادقين، سنجذب

ونسحر. وإن لم تكن كذلك، قد يكرّمنا الناس ويمدحوننا ويقبلون أيدينا - على الأقل في الشرق! - ولكنهم لا يفكرون بأكثر من ذلك في صميم قلوبهم.

ن.ج.: من الأفضل إذاً أن نقول: «إنّ الإنسان هو المغامرة الأخيرة» بدل أن نقول إنّ الحياة الرهبانية هي المغامرة الأخيرة.

هـ.ب.: لا بل أقول إنّ الإنسان المتفوق هو المغامرة الأخيرة، لأننا كلّنا مدعرون لأن نحقق فينا «الإنسان المتفوق». لهذا أحييت نيتته كثيراً. فقد أثر ذلك الفيلسوف فيّ لأنّه حطّم كلّ المفاهيم وهدم كلّ الأصنام. إلّا أنّه كثيراً ما شوّهت دعوته إلى «الإنسان المتفوق» تشويهاً بالغا وصوّرت تصويراً مبسطاً. وأنا أعتبر أنّ الحياة الرهبانية هي البشرية المتفوّقة، البشرية التي تتجاوز نفسها. إنّها منذ نحو المستقبل، نحو ما دُعي الإنسان إلى أن يكون. إنّها دعوة إلى الحرّية التامة، والفرح التام، والفرح الفائق البشرية، والحرّية الفائقة البشرية، والفرح الذي لا يسلبه شيء، والحرّية التي تتجاوز كلّ شيء، لأنها تتجاوز الحرّية نفسها.

والجنس نفسه يتمّ تخطيه علماً بأنّه لا يُنكر، بل يُبني في دائرة أخرى. والغنى أيضاً يتمّ تخطيه، لأنّه يُدمج في مشروع أوسع. ذلك هو التحديّ المستقبليّ الكبير. أجل، إنّ الإنسان هو المغامرة الأخيرة، ونتيجتها الإنسان المتفوق.

مَن يستطيع أن يقول مَن هو الإنسان؟

مَن يستطيع أن يقول ما هو طريق الإنسان؟

مَن يستطيع أن يقول إلى أين يؤدي طريق الإنسان؟...

لأنّ سرّ التجسّد يفتح أمام الإنسان أبعاداً لا يمكن توقُّعها أو بلوغها، أبعاداً مستحيلة، لا متناهية، فائقة البشرية، وإلبيّة...

المسيح هو «شاهد البشرية المتفوّقة في قلب البشرية»، ومَن يختارون أن يتبعوه يندفعون في أكبر مغامرة ممكنة.

والراهب (أو الراهبة) هو ذلك الشخص الذي حمل على محمل
الجد، إلى ما لا نهاية، سرَّ التجسُّد الذي يفتح أمام البشريَّة مساحات
جديدة غير محدودة.

(تعريب أنطوان الغزال)